مملكة غَرناطة

أصبحت عودة إسبانيا إلى حكم المسيحيين وفيهم من الجنود أمثال السيد، ومن الملوك أشباه فرديناند وألفونسو - أمرًا متوقعًا بين يدى الزمان.

ومن الجلى أن لكل أمة ميقاتا، وأن لكل دولة عهد نمو ثم عهد ازدهار، يتبعهما الذبول والهرم والانحلال، وكما سقطت دولة الإغريق، وكما سقطت رومة، وكما سقطت كل مملكة قديمة شهدت الدنيا نهوضها وقوتها - سقط العرب فى إسبانيا وشالت نعامتهم بعد أن دنا أجلهم وحان حينهم، فقد ذهبت ريحهم، وتفاقم الخلاف وزادت الجفوة بين أمرائهم قبل أن يتملكهم المرابطون، ثم إنهم لم يكونوا أحسن حالا حينما دالت دولة المرابطين، فما كاد هؤلاء يغادرون الأندلس حتى ظهر فى الميدان عدو جديد، ذلك أن الموحدين الذين ثلوا عرش المرابطين بإفريقية راق لهم أن يحاكوهم فى ضم الأندلس إلى ملكهم، وذلل أمامهم السبيل ما شجر من النزاع بين أمراء هذه المملكة المنكودة التى طال على تمزقها الأمد، فأخذ الموحدون الجزيرة الخضراء سنة ١١٤٥ م / ٥٤١ هـ، وفى سنة ١١٤٦ م / ٥٤٢ هـ نزلوا بإشبيلية ومالقة، وبعد أربع سنوات أصبحت قرطبة وبقية القسم الجنوبى من إسبانيا تحت رايتهم، وامتنع عليهم بعض الأمراء أول

الأمـر، ولكن الموحدين كانوا أعظم قوة وأشـد بأسًـا مـن أن يقف فى وجوههم أمير أو زعيم.

ولم يفكر الموحدون فـى أن يجعلوا من الأندلس قاعدة لملكهم، بل لبثوا بإفريقية وأرسلوا من حضرتهم نوابًا يقومون بالأمر فيها، وكان من أثر ذلك أن ضعفت قبضتهم على الأندلس، وزلزلت أقدامهم فيها، فإن من الصعب العسـير أن تضبط ولايات مضطربة متنازعة كولايات الأندلـس بنواب يرسـلون من مراكش، أو ببعوث الجند ترسـل بين الحين والحين لصد كرات الأعداء، نعم، إن الموحدين قويت شـوكتهم أول الأمـر حينما قدمـوا إلى الأندلس بعدتهـم وعديدهم، فانتصروا انتصارًا مؤزرًا فى سـنة ١١٩٥ م / ٥٩١ هـ بموقعة الأرك بالقرب من بطليـوس، وقتلوا آلافًا من أعدائهم، وظفـروا بغنائم يخطئها العد، ولكـن الحظ وهو متقلب ملول، لوى عنهـم وجهه فى موقعة العقاب المشـئومة سـنة ١٢١٢ م / ٦٠٩ هـ التى قضت على ملكهم بالأندلس، فقد كان جيشـهم سـتمائة ألـف مقاتل، لم ينج منهـم إلا عدد قليل فـر ليـنبئ بهزيمتهم ودحرهم، وسـقطت مدينة إثر مدينة فى أيدى المسـيحيين، وضاعف كارثة الموحدين ما كان من الشـغب بين قبائل البربر بإفريقية، وما توالى من وثبات المنافسـين لهم فيها، فتبددت قوتهـم، وطمع فيهم أمـراء الأندلس الذين سـئموا حكمهم المتزمت العنيـف، فأزاحوهم عن الأندلس فى سـنة ١٢٣٥ م / ٦٣٣ هـ وأعلن ابن هود نفسـه حاكمًا لأكثر بلاد الجنوب، وتملك سـبتة بإفريقية،

وحين قضى نحبه فى سنة ١٢٣٨ م / ٦٣٦ هـ تحول حكم الأندلس إلى بنى نصر أمراء غرناطة.

وكانت مملكة غرناطة بقية ما ملك العرب بإسبانيا بعد أن تمزقت أشلاء مملكتهم، ووقع أكثر المدن بأيدى المسيحيين، فبين سنة ١٢٣٨ م / ٦٣٦ هـ و ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة وجايم الأول ملك أراغون مدن: بلنسية[1]، وقرطبة، وإشبيلية، ومرسية، وأصبح حكم العرب محصورًا فى مقاطعة غرناطة، وهى الرقعة بين جبال نيفادا[2] وساحل البحر من المرية إلى جبل طارق، وقدر للعرب بعد هذه الفتوح أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن.

وكان للعرب جيش ومنعة فى هذه البقعة التى أحاط بها أعداؤهم من كل جانب، فإن الجنود الأشداء الذين فروا من المدن بعد استيلاء النصارى عليها هرعوا إلى الملك الباقى من ملوك المسلمين ليقدموا سيوفهم وسواعدهم لخدمته، وقد قيل إن خمسين ألفًا من العرب قدموا على سلطان غرناطة من بلنسية، وشريش، وقادس، ومع كل هذه القوة وهذا السلطان كانت غرناطة تومئ لملك قشتالة بالطاعة، وتؤدى إليه الإتاوة كل عام، وكان منشئ دولة بنى نصر عربيًّا يدعى

---

(١) سقطت بلنسية وقرطبة ومرسية سنة ٦٣٦ هـ، وسقطت إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ.

(٢) معنى «نيفادا» الثلج، ويسمى العرب هذه الجبال بجبل الثلج، أو شلير (بصيغة التصغير).

ابن الأحمر[1] لشقرة فيه، وكان شديد المراس قوى الأسر، غير أنه لم يستطع الوقوف فى وجه النصارى، لأن إسبانيا كلها إلا قليلا أصبحت فى أيديهم، فخضع ابن الأحمر مرغمًا لهم، وأدى الإتاوة لفرديناند، ثم لابنه ألفونسو «العالم» وإن حاول مرات أن يخلع نيرهم ويتحدى قوتهم. وفى غضون هذه الفترة ترك ملوك المسيحية غرناطة وشأنها، لأنهم شغلوا بتوطيد دعائم الملك فيما فتحوه من البلاد، وبمكافحة كل دعى فى الملك دخيل.

وطالما حاول العرب فى حروب متعاقبة أن يتغلبوا على المسيحيين ويتفلتوا من أيديهم، ولكنهم قنعوا فى النهاية بالمنزلة التى وضعهم فيها القدر، وكانت الإتاوة التى يؤديها محمد العاشر إلى المسيحيين لصيانة مملكته فى سنة ١٤٦٣ م / ٨٦٨ هـ اثنى عشر ألف دوكات[2].

وكانت لغرناطة منزلة قرطبة فى إنهاض الآداب والعلوم فى أثناء هذا الهدوء السياسى، فكان لبنائيها ومهندسيها شهرة ذائعة فى أرجاء أوربا، فهم الذين بنوا الحمراء التى دعيت بهذا الاسم للون التربة التى أنشئت عليها، وهم الذين موهوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية

---

(١) هو محمد بن يوسف بن نصر.

(٢) نقد ذهبى كان يتعامل به فى أوربا قديمًا، قيمته: تسعة شلنات وأربعة بنسات. فهى تقرب من قيمة الدينار.

الفائقة التى لا تزال إلى اليوم موضع عجب الفنانين وإعجابهم فى أنحاء العالم[1] وتعد غرناطة نفسها ببرجيها السامقين لؤلؤة فى جيد الزمان، فقد بنيت عند نهاية المرج المرِع وفى سفح جبال القمر المتوجة بالثلوج (جبال نيفادا). وإذا أطل المرء من إحدى قمم غرناطة أو الحمراء، التى تقف دبدبانًا فى نهاية المرج، كما يقف الأكروبول فى أثينا[2]، وسرح نظره فى فضاء المرج الأفيح[3] وقد تعانقت أشجاره، وتبسمت أزهاره - رأى من الجداول والكروم والبساتين وغياض البرتقال ما يملأ النفس سرورًا وبهجة، وفى الحق إن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس فى جمال مناظرها واعتدال جوها، فإن النسيم الذى يهب عليها من الجبال الثلجية يجعل أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها، أما تربتها، فمنقطعة النظير فى الخصب وقوة الإنبات، وقد أنشئ قصر الحمراء فوق شرف من الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر، تتدفق فى سفحها الشمالى أمواه نهر حدرّو[4] (درّو) وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر، وشدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليه، وتشبه الرقعة التى قامت عليها الحمراء سن

---

(١) بدئ فى بناء الحمراء فى القرن الثالث عشر، وتم فى القرن الرابع عشر.

(٢) حصن قديم على صخرة ارتفاعها خمسون ومائة قدم.

(٣) يسمى هذا المرج أيضًا بالفحص والبطح، وهو يمتد نحو خمسين كيلو مترًا إلى الغرب حتى مدينة لوشة.

(٤) فى الروض المعطار حدره. ويظهر أنهم كانوا يبدلون الهاء واوًا عند النطق.

رمـح دقيقة الطرف عريضـة الجانبين، يبلغ طولهـا نصف ميل من الشرق إلى الغرب[1].

ويمر الزائر من فناء الحمراء بقبة ضخمة برتقالية اللون، تضرب إلى الحمرة فينتهى إلى باب دار العدل، حيث كان يجلس السـلاطين للفصـل بين الناس[2] كما كان يفعل قضـاة اليهود، وهناك على قوس من البناء لها شـكل حذاء الفرس، ترتفع إلى نحو ثمان وعشرين قدمًا - صورتـان نحتتا فـى صخرتين عظيمتين، إحداهمـا لفتاح رمزى، والأخرى ليد ضخمة مرفوعة إلى السماء[3] فإذا اجتاز الداخل هذا الباب وصـل إلى فناء مربع، فرأى إلى أحد جوانبه القصر الذى هم بإنشـائه شارل الخامس ولم يتمه، ثم يمر بالطريق الموصلة إلى الحمراء، فيرى بعض أطلالها، وينتهى إلى سـاحة تسـمى: ساحة الريحان لكثرة ما بها من هذا النبات، ويخرج من هذه الساحة ممر ضيق يوصل إلى فناء البركـة، وطوله مائة وأربعون قدمًا وعرضـه نصف ذلك، وبه بركة من الرخام تتألق فوقها الشـمس، بها كثير من السـمك ذى الألوان. وتزين جوانب هذا الفناء أعمدة ومشـارف نادرة الصنعة، ويظهر إلى الشـمال منه حصن «قمارش» تياهًا مخترقًا الأفق، ويرفرف السكون والهدوء على هذا الفناء، حتى إن المرء لا يكاد يسمع فيه للماء خريرًا

(١) تسمى الأرض التى بها الحمراء وما حولها بالسبيكة.
(٢) كانوا يجلسون للحكم يومى الاثنين والخميس.
(٣) إشارة إلى أن العدل قوة فى الدنيا والآخرة.

وهو منطلق إلى البركة، وما أجمل تألق السمك الذهبى الكثير العدد بالبركة إذا واجهته أشعة الشمس!! وما أروح أن يحس المرء فيه بأنه فى عزلة عن الدنيا!! فإن أثرًا من آثار الحياة الصاخبة لا يصل إليه، إذ كل ما حوله هدوء مطلق لا يبعث فى النفس الملالة، فهو ظل صامت رزين هادئ، يصور الموت والدمار، ولن يستطيع المرء وهو يراه إلا أن يشعر بالعطف والإكبار والحب لبناة هذا القصرالأولين.

فإذا مررنا من فناء البركة، أو القاعة الزورقية إلى بهو الرسل (السفراء) تخيلنا أيام ازدهار دولة المسلمين، وكدنا نبصر فى صدرها خليفة الأمويين جالسًا على عرشه فى عظمته وجلاله.

فإذا أشرفنا من النافذة المطلة على سهل حدرو ذكرنا كيف أن عائشة زوج السلطان أبى الحسن، أدلت منها ابنها أبا عبد الله محمدًا فى زنبيل منذ خمسة قرون، وكيف أن شارل الخامس قال مرة وهو مشرف منها: «ما أشقى من يفقد كل هذا!».

وفى أثناء بحثنا عن التخطيط المشتبك المعقد لهذه الأطلال، نجد أنفسنا فى مخدع الملكة الذى تطل نوافذه على المرج الفسيح الفياح، فتعود بنا الذكرى إلى العهد القديم وما كان فيه من بلهنية ونعيم ورفه، لأننا نرى بين صفوف المرمر الذى رصفت به أرض المخدع شقوقًا وفروجًا بالقرب من مدخله، يحدثنا القصاصون عنها أن البخور وأنواع الطيب كانت تحرق تحت المخدع، فينفذ إليه شذاها من هذه الشقوق، فتتعطر أرجاؤه. وإذا أطللنا من إحدى نوافذه، رأينا بستان

«ليندارجا» ورأينا بالقرب منه حمامات السلاطين المدلة بنحتها الرائع ورسومها العبقرية، وزليجها الجميل.

وبهذه الحمامات فوارة كان يسيل منها الماء فى صوت إيقاعى كأنه يحاول الانسجام مع رنات الموسيقى التى كانت تهبط من المشارف، وقد جلس بها القيان يغنين ويعزفن لسيدات القصر، وهن ينعمن بالاستحمام، أو يضطجعن على الأرائك الذهبية، وقد نقر كل مستحم فى صخرة عظيمة من المرمر، ووضع فى غرفة سقفها من الزجاج المزين بالتهاويل، بينها صور من نجوم وورود ينفذ النور من خلالها.

وقد يكون بهو السباع أشهر جزء وأبدعه فى هذا القصر، وإن كان أقل اتساعًا من ساحة الريحان، وبهذا البهو مائة وثمانية وعشرون عمودًا من المرمر، وضعت أجمل وضع، ونسقت أبدع تنسيق، باجتماع كل ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، وفوق هذه الأعمدة صفف ليست سامقة الارتفاع، والبهو غنى بروائع الفن، ملىء بنوادره.

ومن هذا البهو يصل الزائر من باب أبدعت الصناعة رسمه وزخرفه إلى قاعة بنى سراج. سميت بذلك لأن السلطان أبا عبد الله أمر بذبح بنى سراج بها[1] ولا نزال اليوم نرى على أرضها نقطًا من الدم، يزعم بعض الناس أنها بقية ما سال من دمائهم.

---

(١) كان بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة، ويقال إن أبا عبد الله كان يتهمهم بممالأة الإفرنج.

ولن يتسع لنا الوقت إذا حاولنا مشاهدة جميع قاعات هذا القصر الفخم وأبهائه، وخير لنا أن نتجه الآن إلى قصر آخر، يسمى بجنة العريف، وهو جوسق القصر الأكبر، يصور ظاهره بساطة الفن الشرقي، وقد أصابه الآن الدمار، وحطمته يد الدهر والإنسان، حتى إن نقوشه العربية الدقيقة شوهت بما لطختها به يد الجهل من طبقات الملاط، واختفت تماثيله المنحوتة وتولى جماله، وزالت نضارته منذ حين.

لم يكن يتوقع العرب، والملكة المسيحية القوية على مرمى سهم منهم، أن يعيشوا أكثر من قرنين فى رفاغة من العيش وقد همست فى آذانهم النذر، وأحسوا قرب زوالهم فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر، وكان اتحاد أراغون وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابلا أول ناعق بالفناء. وكان يحكم غرناطة فى هذا الحين مولاى على أبو الحسن، وكان من أشجع الشجعان قوة وجرأة، فصمم على أن يسبق مكايدهما، وأن يناجزهما الحرب. وكانت بداءة الشر أن أبى أن يؤدى إليهما الإتاوة، حتى إذا وصل إلى حضرته رسول فرديناند يلح فى طلبها وينذر ويوعد، أجابه أبو الحسن فى صلف وكبرياء: قل لمولاك: إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن غير السيوف» ثم أرسل غارة شعواء على المسيحيين بقامة الصخرة ليعزز قوله بالعمل.

وقد قص علينا الكاتب الأمريكى الموهوب واشنطون إيرفنج[1]، عنف هذه الغارة فى كتابه «آخر حروب العرب بإسبانيا» فقال:

«فى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف من الميلاد (٨٨٦ هـ) دُهم أهل الصخرة بياتًا وهم نائمون، وكان حارس القلعة قد هجر مكانه منها، والتجأ إلى كن يقيه العواصف والأنواء التى اشتد غضبها، وثارت ثورتها منذ ثلاث ليال متعاقبة، وقر فى نفسه أن أحدًا من الأعداء لن يخرج فى مثل هذه الليلة الليلاء، وغاب عنه أن أرواح الشرأكثر ما تعمل فى ظلام الليالى العاصفة، وفى منتصف الليل ارتفع الضجيج فى المدينة، فكان أشد إرهابًا من صخب الأنواء، وصاح الإسبان مذعورين: العرب العرب، وسرت أصواتهم فى كل ناحية من المدينة ممتزجة بصليل السيوف وأنين القتلى وصيحات الظفر والانتصار، وخيل إلى أهل المدينة وقد شدههم الذعر، أن شياطين الليل طارت إليهم على أجنحة الريح وسلبتهم حصونهم ومعاقلهم، وارتفعت صيحات القتال من كل مكان، نداء يرجع نداء، وصوت يردد صوتًا، هذا من فوق، وهذا من تحت، وهذا من معاقل القلعة، وهذا من طرق المدينة، نعم، كان العرب فى كل مكان وقد لفهم الظلام وسترتهم الأنواء، غير أنهم مع كل هذا كانوا يعملون متعاونين على نظام دقيق وخطة محكمة، وباغت

(١) أقام بإسبانيا زمنا طويلا. مات سنة ١٨٥٩.

جنود أبى الحسن حراس الصخرة بعد أن هبوا من نومهم، فطارت نفوسهم شعاعا، وأناخ عليهم العرب فاستأصلوهم قبل أن يغادروا ثكناتهم، وبعد فترة قصيرة انتهى الصدام والقتال، والتجأ من نجا من أهل المدينة إلى مخابئ دورهم، أو ذهب إلى الأعداء راضيًا بالذل والإسار، وسكنت السيوف فى أغمادها وسكت صليلها، ولكن العواصف ما زالت تزأر وتصخب مختلطة بأصوات العرب الذين خرجوا هائمين يبحثون عن الغنائم والأسلاب، وبينما كان السكان يرتعدون فرقًا مما سيصيبهم، إذا صوت بوق يدوّى فى أرجاء المدينة داعيًا إياهم أن يجتمعوا عزلا فى الميدان الكبير، وهنالك أحاط بهم الجند لحراستهم حتى الصباح، وكان مما يثير الحزن والأسى، أن ترى، وقد انبثق الفجر، هذه الجموع الحاشدة التى كانت تعيش فى ترف ونعيم وقد اختلط حابلهم بنابلهم وشيوخهم بأطفالهم، ونساؤهم برجالهم، وأغنياؤهم بفقرائهم، وليس على أجسامهم ما يقيهم قارس البرد وعاصف الأنواء، وزاد الضجيج وارتفعت أصوات التوسل والرجاء، ولكن مولاى أبا الحسن القاسى سد أذنيه وأغلق قلبه دون العطف والرحمة، وأمر بهم أن يساقوا جميعًا إلى غرناطة كما يساق العبيد، وأبقى بالمدينة والقلعة حراسًا أشداء، وأمرهم أن يتيقظوا لكل طارق، ثم قفل إلى غرناطة والانتصار ينفخ خياشيمه كبرًا وزهوًا. ودخلها على رأس جنده ومعهم الغنائم والأسلاب، والبيارق والأعلام، وفى أثناء ما أقيم من الولائم والأفراح لهذا الفتح

المبين، قدم أسرى الصخرة من الرجال والنساء والأطفال وقد نهكهم التعب، وأكل قلوبهم اليأس، فدخلوا المدينة كما يدخلها قطيع من البقر قد لفه الليل بسواق حطم».

وبهت أهل غرناطة وذعروا وتألموا لقسوة أبى الحسن، وشعر عقلاؤهم بسوء مغبة هذا التهور وسمَّوه: بداية النهاية، وصاحوا «ويل لغرناطة! ويل لها، لقد دنت ساعتها، وستقع أنقاض الصخرة فوق رءوسنا».

ولم يكن الانتقام بعيدًا، فقد استولى بعد قليل مركيز قادس على حصن الحمة غيلة. وبهذا الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين، وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها، وكم حاول أبو الحسن أن يسترد هذا الحصن فلم يفلح، لأن من به من الجنود أظهروا شجاعة نادرة المثال، وصبروا وصابروا حتى جاءهم المدد، وأدركتهم النجدة. وارتفع الصياح بغرناطة: «ويل للحمة! ! لقد سقطت الحمة وأصبح مفتاح غرناطة اليوم فى أيدى الكفار».

ومن ذلك الحين أصبح هذا الحصن شوكة فى جنوب ملوك العرب، فمنه خرج كونت تندبلة وعاث فى المرج، وأكثر فيه الفساد.

حفز الانتصار كلا الفريقين من المسلمين والنصارى إلى شن الغارات، التى لم يكن لها من أثر إلا التخريب وإثارة الأحقاد، وصمم النصارى آخر الأمر على أن يذيقوا العرب النكال، ويدهموهم

بجيش جـرار، فعزموا على غزو ولاية مالقة، وجمعوا كتائبهم بزعامـة مركيز قادس وغـيره من كبار القواد، ثـم زحفوا على العرب بهذا الجيش المشـئوم[1]. «وخرج الجيش مزهوًّا بأبطاله المدججين من أبواب أنتقيرة[2] يوم الأربعاء، فمشـى جنوده ليلة بنهارها فى شـعاب الجبال، مبالغين فى إخفاء أنفسـهم حتى يأخذوا العرب بغتة.

ولم يصلوا إلى الطريق الذى كانوا يقصدون العيث والإفساد فيه إلا فى اليـوم التالى، وكان شـعبًا ممتدًا فى أملاك العرب بالقرب من سـاحل بحر الروم، وفى هذا الشعب لاقوا من الأهوال والفوادح ما يعجز عنه الوصف، فسـاروا فيه يسـتحثون الخطا بين الجبال العابسة السامقة والأوعار والخوانق. وطالما اعترض طريقهم مهاو عميقة، وأودية صلدة بعيدة الغور قليلة الماء بين صخور تريد أن تنقض، وصخور أسـقطتها عواصـف الخريف، فعز اجتيازها، وقد يمشـون سـاعات طويلة فى أخاديد، أو فى مجرى جاف حفره السيل بين الجبال، وغمره بالحصا والأحجـار، وكانت تغطى هـذه المهاوى وتلك الأخاديـد قمم عزيزة المرتقـى صعبة المنحدر، جعلت من هذا المكان مخبأ صالحا، كان يكمن فيه الجنود فى أثناء الحروب بين العرب والمسـيحيين، ثم أصبح بعد ذلك وكرًا للصوص، يثبون منه على المسافرين.

---

(١) الوصف التالى الذى وضع بين أقواس، مقتبس من كتاب واشنطون إيرفنج.

(٢) يسميها صاحب نفح الطيب: «النقيرة».

وعند غروب الشمس ،بلغ الفرسان قمة بعض الجبال، ونظروا إلى ميامينهم فرأوا عن بعد قسما من مرج مالقة الوسيم وقد ظهر من ورائه بحر الروم، فاشتد فرحهم حتى كأنهم بقية من قوم موسى، ظفروا بعد أين بنظرة إلى أرض الميعاد بعد الفرقة والشتات، وحين اعتكر الظلام وصلوا إلى بعض الأودية والدساكر التى أطبقت عليها الجبال، ويسمى العرب هذه البقعة بشرقية مالقة، وفيها كتب لآمالهم أن تخيب، ولجيشهم أن يتمزق: فإن العرب لما علموا بقربهم، ساقوا بقرهم، وحملوا أمتعتهم، والتجئوا بزوجاتهم وأولادهم إلى قلل الجبال ومعاقلها.

واشتد غضب النصارى، وانصرفوا مسرعين طامعين فى أن يقعوا فى الطريق على غنى أعظم وأوفر، وأرسل الدون ألونزو آل أغيلار وغيره من القواد جنودهم، فعاثوا فيما حولهم من الأرض، ودمروا ما شاء غيظهم أن يدمروا، واستلبوا بعض البقر من زراع العرب فى أثناء فرارهم، وبينما كان هذا الفريق يعيث ويدمر ويشعل النار فى الدساكر فتنير الجبال، أمر صاحب سنتياغو - وكان يقود ساقة الجيش - أن يجتمع الفرسان صفوفًا ليكونوا على استعداد إذا صاحت بهم صائحة.

وحاول بعض فرسان هذه الأخوة الدينية أن يهيموا فى الأودية لاقتناص الغنائم، فدعاهم وزجرهم.

ثم قادهم سوء الطالع إلى شِعب في الجبل تقطعه الهوات والأخاديد البعيدة العمق، وتغطيه القمم، فكان مستحيلا أن يحتفظ فيه الجيش بنظامه، وضاق مجال الخيل عن المسير فخرجت عن طوع فوارسها، وكانت تتسلق من صخرة إلى صخرة، وتنزل غورًا وتصعد في نجد، وتنقل سنابكها في مكان يضيق بفرسن الوعل، وحينما مروا بإحدى القرى كشفت لهم أضواؤها ما صاروا إليه من سوء الحال، وتفاقم الخطب، ووعورة الطريق، وهنا بصربهم العرب الذين كانوا قد سبقوهم إلى معاقلهم المعنة في الارتفاع، ورأوا الفخ الذي سقطوا فيه، فصاحوا جذلين مستبشرين ونزلوا من حصونهم، وربضوا فوق قمم الجبال التي تشرف على الهوات التي ارتطم فيها المسيحيون، وأخذوا يصبون عليهم وابلا من السهام والأحجار.

وأطبق الليل بظلامه الدامس مرة أخرى على المسيحيين وهم محبوسون في واد ضيق يخترقه جدول عميق، وتحيط به الحبال الذاهبة في السحاب وقد اشتعلت فوقها نيران الدعوة إلى الجهاد، وبينما هم في هذه الحال من اليأس، إذا صيحات مزعجة يتردد صداها في جنبات الوادي: الزغل الزغل!! فسأل صاحب سنتياغو: ما هذه الصيحات؟! فأجابه جندي قديم: هذه صيحات الزغل قائد العرب، وهي تدل على قدومه بجيشه من مالقة، فالتفت صاحب سنتياغو إلى فرسانه وقال: فلنمت ممهدين الطريق بقلوبنا بعد أن عجزنا عن تمهيدها بسيوفنا، ولنخترق الجبال إلى الأعداء، ولأن نبيع أنفسنا هنا غالية، خير من أن نذبح مستسلمين، وما كاد

يتم قولته حتى لوى عنانه وهمز فرسه متسلقا الجبل يتبعه المشاة والفرسان، وقد وقر فى نفوسهم أنهم إذا لم يستطيعوا الفرار فلا أقل من أن ينالوا من أعدائهم بعض منال، وبينما هم يتسلقون إذ دهمهم من العرب سيل من السهام والحجارة، وكثيرًا ما كانت الصخرة تهوى على جموعهم كالرعد القاصف فتمزقهم تمزيقًا.

وكان يطمح صاحب سنتياغو أن يجمع شمل مشاته، وأن يهجم بهم على الأعداء. ولكن قومه من حوله ألحوا فى رجائه أن يربأ بنفسه عن التلف، وقالوا له فيما قالوا: إن فى بقائك بين براثن هؤلاء الأعداء موتًا محققًا، لا ينفع بسيف، ولا ينفع فيه الإقدام. وإن فى فرارك إبقاء على حياة قد تنال فى يوم أمنية الانتقام، فخضع القائد بعد لأى لنصحهم وقال: اللهم إنى أفر من غضبك لا من هؤلاء الكفار، فإنهم لم يكونوا إلا آلة فى يدك، أردت أن تطهرنا بها من ذنوبنا، ثم دعا بالأدلاء أن يتقدموه، ونخس جواده فوثب فوق أخاديد الجبل قبل أن يدركه العرب، ورآه جنوده فتفرقوا أيدى سبأ، واقتفى بعضهم آثاره ولكنهم ضلوا الطريق وأخذتهم الحيرة بين شعاب الجبال المضللة، فذهبوا هنا، ثم ذهبوا هناك. ومات فريق منهم فى الطريق، وذبح العرب فريقًا، وأسروا فريقًا»[1].

---

(١) فى نفح الطيب: وقتل من النصارى فى هذه الوقعة ثلاثة آلاف، وأسر نحو ألفين من جملتهم خال السلطان وصاحب إشبيلية، وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر. وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة.

ولم ينسَ المسيحيون وشيكا هذه الويلات، ويلات جبال مالقة، فكانوا يتحرقون للانتقام، وقد ظفروا بثأرهم وشفوا غلتهم، وفازوا بانتصار باهر حينما شن أبو عبد الله على بلادهم غارة شعواء، وكان فى ذلك الحين قد اغتصب ملك غرناطة من أبيه، فزحف بجنوده خفية مدرعًا الليل، ولكن النصارى علموا بهذا الزحف، فأشعلوا النيران فى قمم التلال للاستغاثة، وقد تنبه كونت قبرة لهذه النيران، وجمع زعماء قومه وأتباعه فعثروا على العرب بالقرب من لشانة، وتربصوا لهم فى غابة هناك، ثم سقطوا عليهم فهزموهم شرهزيمة. وحينما دخل فلول الفارين أبواب غرناطة، تعاظم الأمر أهلها فبكى الباكون، وندب النادبون قائلين: «غرناطة يا أجمل المدن!! أين ذهب جمالك وجلالك؟! ... لقد دفنت زهرات مجدك فى أرض الأعداء، فلن يتردد فى بطحاء الرملة بعد اليوم صدى سنابك الخيل، ولا صيحات الأبواق. ولن يزدحم فضاؤها بعد اليوم بشبابك النبلاء، وهم يستعدون للمبارزة والجلاد.

غرناطة يا أجمل المدن!!.. لن تسرى بعد اليوم نغمات العود الناعمة فى شوارعك المقمرة، ولن تسمع ألحان العشاق تحت قصورك العالية ... وستخرس دقات الصنوج المرحة فوق تلالك الخصيبة ... وستقف رقصات الزمبرة الجميلة تحت عرائشك الوريفة.

غرناطة يا أجمل المدن!!.. لم أقفرت الحمراء من أهلها وأصبحت يبابا؟! إن الريحان وأزهار البرتقال لا تزال ترسل أريجها بين

غرفها وفراشها الوثير ! ! ولا تزال البلابل تصدح فى مروجها الفيح، ولا تزال أعمدة أبهائها تنتعش برشاش الفوارات يتساقط عليها، وتنعم بخرير أمواهها كأنه صوت أم تدلل أطفالها، واحسرتاه! ! لن نشهد بعد اليوم طلعة السلطان مشرقة بين أبهائها، لأن نور الحمراء أطفئ إلى الأبد».

قبض على أبى عبد الله فى هذه الموقعة، وأرسل أسيرًا إلى قرطبة. وانقض فرديناند على المرج يعيث فيه فسادًا، بينما كان مولاى أبو الحسن - وقد عاد إلى ملكه - شيخًا هِمًّا يحرق الأرَم غيظًا من وراء أسواره.